علماء يفتنون بالدنيا

ولكن ، إلى جانب هذه الصورة المشرفة ، التى رسمها الجبرتى لبعض العلماء ، نجد وجهاً آخر لهذه الصورة . صور الجبرتى فيها فريقاً منهم ، فإذا هم ، ظلمة ، جماعون للمال ، مفتونون بالدنيا أشد فتنة ، يقسون على الفلاحين — وهم منهم قسوة بالغة . بل كان بعضهم أشد قسوة عليهم من الأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين . يتاجرون بالفتوى ، ويسارعون إلى مرضاة كل جبار ، ولو غضب الله عليهم

وقد ألهمت هذه التجارة بالفتوى شاعر العصر ، الشيخ حسن الحجازى قصيدة طويلة طريفة . فقد تنازع فريق من المماليك ، ووقعت بينهم حرب طويلة قاسية ، واستطاع كل فريق منهم أن يحصل على فتوى من العلماء بأنه على حق ...! وأنه ، كما أفتى العلماء ، يجوز له أن يقاتل الفريق الآخر . وفى هذه القصيدة الطويلة الطريفة يقول الشيخ الحجازى .

والعلما ، أهل الضلال والردى ، لهـــم أباحوا كل ما لا يحمد

أما جمع المال والحرص عليه ، فقد روى الجبرتى أن الشيخ محمد شنن المالكى شيخ الأزهر ، كان أغنى أهل زمانه . وأنه لما مات فى سنة ١١٣٣ . ترك لابنه موسى ، من الذهب البندقى وحده ، أربعين ألفا « خلاف الجنزرلى ، والطولى ، وأنواع الفضة والأملاك ، والضياع ، والوظائف ، والجماكى ، والرزق ، والأطيان ، وغير ذلك » ثم يقول الجبرتى : إن ابنه هذا أتلف جميع ماتركه الشيخ . ثم مات مدينا .

وكان الشيخ عبدالله الشبراوى ، شيخ الأزهر أيضاً ، واسع الثراء ، بنى دارا عظيمة على بركة الأزبكية ، مسكن الأمراء وأهل الثراء فى ذلك الوقت ، وأنفق عليها أموالا عظيمة . وكان يجمع فيها التحف النادرة والكتب الحسنة الخط ، ويعنى بتجليدها وزخرفتها .

وكان لمطبخ ولده ، عامر ، رأسان من الغنم السمينة ، يذبحان فى كل يوم .

وروى الجبرتى : أن الشيخ عبد الباسط السنديونى ، وكان عالما شديد الذكاء قوى الحافظة ، نازع امرأة عجوزا على فدان ونصف فدان من الأرض ، وظل هذا النزاع سنين طويلة ، ولقى فيه الشيخ مهانة كبيرة ، حتى قال له العروسى مرة : والله لو كان هذا الفدان ونصف لى فى الجنة ، ونازعتنى عليه هذه العجوز ، لتركته لها . ولكن الشيخ عبد الباسط لم يترك المرأة العجوز ، وظل فى نزاعه معها حتى مات . ثم يتبع الجبرتى هذه القصة بقوله : إن الشيخ فعل « غير ذلك أمورا يستحى من ذكرها فى حق مثله » .

الشيخ الشرقاوى

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره . تولى مشيخة الأزهر واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . ولكنه كان فى بداية أمره فقيرا جدا ، يواسيه إخوانه ، ويرسلون إليه صحائف الطعام أو يدعونه إلى طعامهم ، ولا يطبخ فى داره إلا نادرا . وكان يذهب إلى بيوت الناس ، وإلى المآتم ، يقرأ القرآن ، ويقيم الأذكار . ثم يأكل مع إخوانه المقرئين قصعة الثريد . وفى آخر الليل يأخذ أجره القليل يقتسمه معهم ، فلما أقبلت عليه الدنيا ، وتولى مشيخة الأزهر ، زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها ، حتى صار يضرب بعظمها المثل ، على حد تعبير الجبرتى ، وكان الشيخ مصطفى الصاوى ينازعه المشيخة ، ثم انتهى أمرها إليه ؛ على أن تبقى للصاوى وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية ، المجاورة لضريح الإمام الشافعى . ولكن الشرقاوى طمع ، بعد قليل فى مرتب هذه المدرسة ، فذهب يسعى عند أنصاره من الشيوخ والأمراء فى أن ينالها ، ثم ذهب يوما إلى هذه المدرسة وألقى فيها درساً . واستعان الصاوى بكتخدا إبراهيم بك الكبير . وسامحه فى دين كان له عنده . وطال النزاع واشتد أمره بين الشيخين . وكانت الغلبة للصاوى . فبقى فى المدرسة حتى مات ، ثم أخذها الشرقاوى . وطلب من خدم الضريح مايستحقه من مال ، وشاحنهم فى ذلك ،

وسبهم . فتعصبوا عليه ، وشكوه للوالى ، وأوشك أن يعزل من مشيخة الأزهر بسبب ذلك . ثم وقف عن عمله أياما وعفا عنه الوالى على أن يترك المدرسة الصلاحية . ومما ذكره الجبرتى عن الشيخ الشرقاوى : أنه حصل له ، فى شبابه ، اختلال فى عقله . وأنه بقى أياما فى مستشفى الأمراض العقلية .

ولما اختاره الفرنسيون رئيساً للديوان كان يشتغل بالوساطات والشفاعات لديهم وينال فى ذلك أجرا من أصحاب الحاجات . واستولى ، بما كان له من جاه فى ذلك الوقت ، على ثروات كثيرة هاجر أصحابها ، أوقتلوا أو اختفوا . واتسعت عليه الدنيا ، وكانت زوج الشيخ ، ابنة الشيخ على الزعفرانى ، عندما تزوجها ، فقيرة مثله . فلما كثر ماله ، ترك لها تدبيره . فاشترت له الأملاك ، والعقارات والحوانيت ، والحمامات . مما يغلّ فى كل شهر قدرا كبيرا من المال .

ولما بنى الشيخ الشرقاوى رواقا خاصاً لأهل الشرقية فى الأزهر ، نقل إليه أحجارا وعمودا من مسجد الظاهر بيبرس ، خارج الحسينية . وكان يدخل فى نظارته وقف فيه خانقاه قديمة أنشأتها الخاتون طغاى الناصرية — زوج السلطان الناصر قلاوون — فلما بنى الفرنسيون قلاعهم خارج القاهرة بعد ثورة أهلها ، هدموا هذه الخانقاه ، وكانت فى الصحراء ، خارج المنطقة المعروفة بالدراسة ، قريباً من الأزهر ، فى الطريق إلى القرافة .

ولما خرج الفرنسيون من القاهرة بعد تخريب هذه الخانقاه ، ضمها الشيخ إلى أملاكه ، وبنى مكانها زاوية ، ومدفنا له . وإلى جوارها أقام قصرا كبيرا ، يحتوى على أروقة ومساكن ومطبخ . وكانت إلى جوار الخانقاه ساقية فجعلها بئرا لقصره .

وقد ذكر الجبرتى أنه زار هذه الخانقاه فوجد بها ، روحانية لطيفة . وعددا من الناس يقيم فيها . عدا القائمين بخدمتها . وكان ذلك قبل أن يستولى الشيخ عليها ويضمها إلى أملاكه .

فهو يقول فى ترجمة الشيخ أحمد العريشى ، مثلا ، إنه كان يتدخل فى القضايا والدعاوى ، واشتهر فى ذلك أمره . فاشترى داراً واسعة ، وتجمل بالملابس ، وركب البغال ، وصار له أتباع وخدم . وكان ، مع ذلك ، قاضيا ومفتيا .

وكان الشيخ محمد الدواخلى عالما كبيرا ، وله نسب شريف ، من جهة أمه ، وتولى ، فى أيام محمد على ، نقابة الأشراف . ومع ذلك يصفه الجبرتى بأنه كان يتدخل فى القضايا ، وخاصة أيام الفرنسيين ، وكان يأخذ الأراضى التزاما ، ويؤجرها للفلاحين ، وأدخل فى ملكه كثيرا منها . وجمع من هذا وذاك ثروة طائلة .

وقد أسهب الجبرتى فى ذكر « فتنة » — على حد تعبيره — وقعت فى الأزهر وكان سببها النزاع بين الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ عبد الباقى القليينى على المشيخة . وقد بلغ النزاع بين الشيخين وأنصارهما إلى حد استعمال البنادق فى داخل الأزهر . وقتل بالرصاص من جماعة النفراوى عشرة . عدا الجرحى ، وأغلقت أبواب الأزهر ، ومنعت الصلاة فيه ، وكسرت الخزائن ، وحطمت القناديل . ولم تنته الفتنة إلا بالحجر على النفراوى وأمره بأن يلزم بيته . ونفى الشيخ محمد شنن ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد ، إلى بلده . والقبض على اثنى عشر عالما وحبسهم فى العرقانة ، أى السجن .

ومن العلماء من كان يبيع العلم . كالشيخ حسين المحلى . كان يكتب مؤلفاته بخطه ، ويبيعها لمن يرغب . ويأخذ من طلبته أجرا على تعليمهم . فإذا طلب منه أحدهم أن يقرأ له كتابا معينا ، ساومه فى ذلك وتمنع عليه قائلا له : إنى لا أبذل العلم رخيصا . ولا يقبل منه مايعرضه من مال إلا بعد شدة وعناء وجهد .

ومن الملاحظات الطريفة التى سجلها الجبرتى : أن محمد بك أبو الذهب بعد أن تم بناء مسجده المواجه للأزهر ، اختار ثلاثة من العلماء للتدريس فيه ، والفتوى . وفرض لهم مرتبا يكفيهم ، وشرط عليهم ألا يقبلوا الرشوة . . .

الشيخ محمد المهدى

ومن أعظم العلماء الذين ترجم لهم الجبرتى . الشيخ محمد المهدى . كان أبوه صيرفيا يسمى أبيفانوس من حى الصيادين فى الإسكندرية . وجده لأمه يسمى البطاس وكان قبطيا فأسلم ، وهو دون البلوغ ، على يد الشيخ الحفنى الذى احتضنه ورباه فى بيته مع أولاده وعنى به عناية كبيرة . ثم اشتغل بالعلم حتى برّز فيه . ثم أقبلت عليه الدنيا بعد أن تزوج امرأة ثرية . والتصق بالوالى حسن باشا الجزائرلى فأنعم عليه بالخلع والكساوى، ورتب له الوظائف فى الضربخانة، والسلخانة والجوالى[1] . ووقع بمصر طاعون . فكان يضم إلى ثروته تركات من يشاء من الموتى . وزاد ماله زيادة كبيرة . ولكن شهوته للمال كانت تزيد أيضاً . فتاجر وشارك من يتاجر له ، فى القطن ، والكتان ، والأرز . وغير ذلك . وأخذ بلدة « شابور » فى البحيرة التزاما . كما أخذ بلاداً غيرها فى الجيزة ، والغربية ، والمنوفية ، وبنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعى . ولما قدم نابليون إلى مصر تقدم إليه ولاطفه ، وسايره . فأحبه الفرنسيون ، وقبلوا شفاعته ، وسارعوا مدة إقامتهم فى مصر كلها إلى تلبية رغباته . واختاروه رئيسا إداريا للديوان . ونال فى أيامهم أموالا عظيمة .

وكان إذا سار مشى حوله وأمامه الحراس ، بأيديهم العصى ، يفسحون له الطريق . وأقامه الفرنسيون جابيا لهم فى بلاد كثيرة يجمع لهم منها الضرائب . فيأتى له الفلاحون بالهدايا ، من الغنم ، والسمن ، والعسل وغيرها . فلا يمتنع ، مع ذلك ، من حبسهم وضربهم . وصار له أتباع وأعوان وخدم . ولما خرج الفرنسيون من مصر . نال المكانة نفسها والصدارة ، فى أيام العثمانيين . واستولى على قلوبهم بحيلته . فأبقوا له أراضيه ، والتزاماته ، وزادوه عليها . وأكثر من الزوجات ، وكلما كبر له ولد أسرع بتزويجه ، فتقاطر عليه الهدايا من المسلمين والنصارى . واشترى داراً كبيرة بناحية الموسكى على الخليج ، وكانت بها قاعات عظيمة ، جدرانها وأرضها مكسوة بالرخام الملون والقيشانى ، وتطل على

(١) الجزية التى كانت تفرض على النصارى واليهود .

بستان عظيم . ولما اشترى هذه الدار ، وكان أصحابها عتقاء بعض الأمراء ، دفع لهم بعض ثمنها وأخذ منهم وثيقة الشراء وانتقل إليها . وكلما طالبوه بباقى الثمن ماطلهم . ثم تركهم وسافر إلى البلاد التى نالها بالالتزام ، أو ملكها . وظل غائبا عن القاهرة خمس سنين ، مات فيها أصحاب الدار ، وبقيت منهم امرأة ظلت تراسله وترجوه ، وهو لا يصغى إليها . فلما عاد إلى القاهرة عرضت العجوز أمرها على نائب الوالى . وبذلك استطاعت أن تنال بعض حقها .

ثم اشترى ولد له اسمه أمين ، أرضا مجاورة لبيت أبيه هذا بنى عليها داراً كبيرة . بقى العمال يصنعون رخامها أربع سنين .

ولما وقعت الجفوة بين السيد عمر مكرم ، ومحمد على . وجد الشيخ المهدى فى ذلك فرصة للتخلص من السيد . فسعى ، ومعه علماء آخرون . وشهدوا فى عمر مكرم شهادة الزور ، حتى نفاه محمد على إلى طنطا . ثم طلب من محمد على ثمن خيانته لعمر مكرم ، فدفع له ألف جنيه . وفى اليوم الذى خرج فيه السيد عمر منفيا ، طلب المهدى من محمد على نظارة وقفى سنان باشا ، وضريح الإمام الشافعى ، وكانا تحت نظر السيد عمر ، فأعطاها له محمد على .

وكان دائم الحركة ، لا يبيت فى بيته إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع ، ويقول فى ذلك : أنا بيتى ظهر بغلتى . فإذا أراد المبيت ، نام فى أى مكان ، ولو على حصير . وكثيرا ما كان يأكل الجبن الحلوم ، والفسيخ ، أو البطارخ . مع هذه الأموال العظيمة التى جمعها .

والشيخ المهدى هو الذى كان يكتب منشورات نابليون التى كان يذيعها على المصريين باللغة العربية يدعوهم بها إلى مسايرته ، وطاعته . واختير سكرتيرا للدواوين الثلاثة التى أسسها الفرنسيون فى مصر .

ولما فرض الفرنسيون الضرائب الفادحة على أهل القاهرة عقابا على ثورتهم الثانية فى عهد قيادة الجنرال كليبر ، أعفوا من الضريبة كلا من الشرقاوى ، وخليل البكرى . لأن الشرقاوى ، كما يقول الجبرتى ، كان « يستعمل المداهنة ، ويناقق الطرفين ، بصناعته وعادته » . ولعل ذلك هو الذى جعل نابليون يثنى

عليه ، ويمدحه ، فيقول إنه : « أذكى علماء الأزهر ، وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم علما ، وأصغرهم سنّاً[1] » .

ومن غريب ما ذكره الجبرتى عن الشيخ المهدى ، أنه ، بعد أن أفرج الفرنسيون عنه ، وكانوا حبسوه فى بعض فتن القاهرة ، نقل متاعه من بيته بالحرنفش . ثم حرق البيت ليوهم الفرنسيين أنه احترق فى الثورة ، وأنه لم يبق له شىء .

وقد قبل نابليون دعوة الشيخ المهدى لزيارته فى بيته . وحضر ومعه كبار قواده ورجاله حفلا أقامه الشيخ لزفاف ابنه .

وكانت توجد فى ذلك الوقت امرأة تسمى السحراوية ، كانت زوجا لبعض الكبراء ، وورثت عنه مالا كثيرا . وهى عجوز . فسعت حتى تزوجت الشيخ سليمان الفيومى حماية لمالها ، ثم اشترت له جارية أعتقتها ، وزوجتها له ، ولم يدخل بها . ثم مات الشيخ الفيومى ، وترك هذه العجوز ، وزوجا أخرى ، وهذه الجارية التى تزوجها بعد العتق . وبعد قليل ماتت هذه السحراوية الغنية بلا وارث . فوضع الشيخ المهدى يده على جميع أموالها وجواريها والتزاماتها ، وزوّج الجارية ، التى كانت أعتقتها لتزوجها للفيومى ، لابنه عبد الهادى .

واشترى المهدى فى آخر عمره داراً فى الكعكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلها إلى قرافة المجاورين . وقد ذكر الجبرتى أنه سمع هذه الواقعة بنفسه من الشيخ المهدى . وبنى فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدى مشيخة الأزهر . ومات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة . فى فن من الفنون . على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . وكان لا يواظب على إلقاء دروسه . لانشغاله بجمع المال ، وحبه للدنيا .

ومما سجله الجبرتى على العلماء ، من مظاهر فتنتهم بالدنيا ، وظلمهم للفلاحين :

---

(١) ص ٣٢٢ — ٣٢٣ من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى الجزء الأول .

أن محمداً عليا كان — فى أول أمره — سامح العلماء فى المغارم التى فرضها على الأراضى . ولكنهم كانوا يجمعون هذه المغارم من الفلاحين لأنفسهم .

وفى سنة ١٢٢٣ (١٨٠٨م) كان النيل منخفضاً جداً ، فطلب محمد على إلى العلماء الخروج إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء ، والدعاء إلى الله أن يفيض لهم ماء النيل . فقال الشيخ الشرقاوى لمحمد على : ينبغى أن ترفقوا بالناس ، وأن ترفعوا عنهم الظلم ، حتى يقبل الله دعاءنا ويرحمنا . فقال له محمد على : أنا لست بظالم وحدى فإنكم أنتم أظلم منى . رفعت عنكم المغارم إكراما لكم ، ولكنكم تأخذونها من الفلاحين .

وخرج العلماء ، وأهل الأزهر ، والأطفال ، إلى مسجد عمرو بن العاص لصلاة الاستسقاء ، ولكن النيل فى اليوم التالى زاد انخفاضه . . . ! وعادوا مرة أخرى للصلاة والدعاء . وخرج معهم فى هذه المرة ، النصارى . فزاد الماء ، وفاض النيل كعادته . وقالت النصارى : إن النيل لم يفض إلا بخروجنا .

وقد رسم الجبرتى صورة قوية ، ولو أنها مؤلمة ، للعلماء ، بعد أن أعفاهم محمد على من ضرائب أطيانهم ، وكيف بلغ بهم حب المال ، واستحوذت عليهم الدنيا . وقد يكون الجبرتى قد قسا عليهم فى ذلك قسوة بالغة ، ولكنهم من غير شك ، يستحقون هذه القسوة .

فتنة المال

قال الجبرتى ماملخصه : إن مسامحة العلماء ، ومن يحتمى بهم ، جعلتهم يسرفون فى أخذ الجعالات ، والهدايا ؛ من أصحاب الأراضى ، ومن فلاحيهم ، نظير حمايتهم . وأكثروا من شراء الحصص من المحتاجين ، والمأزومين ، بأدون قيمة . وتركوا مذاكرة العلم ومدارسته . وأصبح بيت أحدهم مثل بيت أمير من الأمراء ، يعجّ بالخدم ، والمقدمين ، والأعوان ، وفيه القيعان لحبس الفلاحين وضربهم بالكرابيج وتعذيبهم ، واتخذ العلماء الكتبة الأقباط لتحصيل أموالهم وتنميتها ، وإنذار الفلاحين ، واستعجالهم ، ومقاضاتهم ، وتهديدهم ، واتخذوا قطّاع الطريق جباة لأموالهم

وحماة لهم ، ورسلا إلى إقطاعياتهم . وتطاول بعضهم على بعض ، بالكراهية والحسد . فإذا اتخذوا مجالسهم فلاحديث لهم إلا الحصص ، والالتزام ، والأراضى ، وحساب الميرى ؛ والفائظ . وغير ذلك من الأمور الدنيوية . وأكثروا من مصادقة الأقباط ، وإقامة الولائم لهم ، لاستشارتهم ، والاستمانة بهم على زيادة الثروة . وزاد بينهم التحاسد والتنافر ، والتحاقد على الرياسة « والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح ، والشكوى ، والاستجداء ، وفراغ الأعين . والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء ، والفقراء ، والمعاتبة عليها ، إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب . وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع ، واتساع الدائرة » .

فى مجالس اللهو

ثم وجه الجبرتى للعلماء لوما قاسيا ، لارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة ، المسقطة للعدالة . كاجتماعهم لسماع الأغانى ، والملاهى ، والقيان ، وآلات الطرب . وتقديمهم « النقوط » لأرباب الخلاعة . حتى كان « الخلبوص » ينادى بين النساء والرجال . ويخاطب رئيسة المغنيات « ياستى حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان ، منه كذا وكذا من العملة الذهب » وهم يتزاحمون على ذلك ويتفاخرون فيه ، ويتضاحكون فى مجالس اللهو بأصوات عالية وقهقهة تسمع من بعيد . ويتسابقون فى الهزليات ، والمضحكات ، وألفاظ الكناية « والتنكيت » حتى قلدهم أوباش الناس فى المحرمات ، التى كان واجبهم النهى عنها » .

مكر وقيعة

أما وقيعة العلماء ، بعضهم ببعض ، ومكرهم السيء ، لإيقاع الأذى بالآخرين ، فقد ذكر الجبرتى منه أمراً عجباً . وأبرز ما رواه من ذلك وقيعتهم بالسيد عمر مكرم عند محمد على ، ودسائسهم ضده . حتى كتبوا فيه « عريضة » تفننوا فيها بذكر دعاوى مكذوبة . وتهم مختلقة . لأنهم عرفوا أن محمدا عليا تغير على صديقه القديم

الذى كان ينادية بالوالد . والذى أتاح لمحمد حكم مصر ، ومكن له من ملكها . ثم ضاق بنقده ومعارضته لما كان يقدم عليه من ظلم وقسوة . وقد نجح العلماء فى وقيعتهم . فنفى السيد عمر ، بأمر محمد على ، إلى طنطا . وأسرع الشيوخ إلى محمد على ، كل يطلب لنفسه مغنما ، جزاء هذه الوقيعة ، كما أشرنا لذلك من قبل . ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى الشيخ أحمد الطهطاوى . فقد أبى أن يوقع معهم على عريضة الاتهام والزور لعمر مكرم . فكان جزاؤه الخلع من إفتاء الحنفية .

وكذلك أوقع العلماء بالشيخ الدواخلى . بعد أن اشترك معهم فى وقيعتهم ضد السيد عمر . وكما نفى مكرم إلى طنطا ، نفى الدواخلى إلى دسوق .

وقد قسا الجبرتى على العلماء ، بسبب هذه الأمور قسوة بالغة . فأصبح يسميهم « شيوخ الوقت » ويقول : إن هيبتهم زالت من النفوس ولم يبق لهم وقار .

ويدل على فقدان هذه الهيبة مارواه الجبرتى : من أن إبراهيم بن محمد على ، كان يحترم العلماء ويجلهم . كما كان أبوه من قبل يستشيرهم فى كثير من الأمر ، ويعمل بمشورتهم . ولكن إبراهيم فقد احترامه للعلماء لما ظهر من أخلاقهم وحقدهم ، وكراهة بعضهم لبعض . وكان محمد على ، وابنه ، فى غنية أيضاً عن تملق العلماء بعد تثبيت الملك ، والانفراد بحكم مصر .

ويدل على فقدان هذه الهيبة أيضاً مارواه الجبرتى : من أن العلماء ذهبوا لتحية إبراهيم بعد عودته من حرب الوهابيين ، فلما أقبلوا عليه ، وهو جالس ، لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام . فجلسوا وأخذوا يهنئونه ويحيونه ، وهو لا يجيبهم ولا بالإشارة ، بل جعل يتشاغل عنهم بالحديث إلى شخص آخر .

كذلك يقول الجبرتى : إن « مشايخ الوقت » ذهبوا للسلام على محمد على ، بعد عودته من سفره ، فلم يأذن لهم فى أن يقابلوه .

وقد بلغ الأمر أن ذهبوا إلى المعلم غالى ، وكان يجمع الضرائب لمحمد على ، فحدثوه فى أمور من المال تخصهم ، فلم يستجب لهم . وقال : إن الباشا يسعى لتخليص كعبتكم ، وقبر نبيكم . فيجب عليكم أن تساعدوه . يشير بذلك إلى حرب

الوهابيين فى الحجاز. وهؤلاء العلماء الذين امتهنهم محمدعلى ، وابنه — بعد أن عرفاهم ولم تعد لهما حاجة فيهم — هم الذين استكتبهم محمد على شهادة يصفها الجبرتى بأنها شهادة زور . وذلك عندما جاء فرمان من الدولة بإخراج محمد على من مصر . فلجأ إلى العلماء يستكتبهم فقالوا له اكتب ماتشاء . ثم وقعوه أو بصموا عليه بأختامهم وأرسله إلى الآستانة . وكان سبباً فى تجديد ولايته على مصر .

والقضاة أيضا

وكما قسا الجبرتى على العلماء من أهل الأزهر هذه القسوة البالغة . كان قاسياً أيضاً على بعض القضاة الذين كانت توفدهم الدولة لقضاء مصر . فهو يقول عن بعضهم: إنه كان شديد الحب للمال ، وكان يفرض لنفسه الضرائب على الخصومات والتركات . حتى كان بعض اليتامى من الورثة ، لا يبقى لهم من مال مورثهم شىء ، لأنه كان يستوفى ضرائبه الفادحة أولا . وكان يقدرها كما يشاء . وقال : إن الفرنسيين كان قضاؤهم خيرا من قضائه . ولكنه يرجع فساد القضاة أيضاً إلى فساد العلماء ، حيث يقول إنهم — أى القضاة — كانوا يخشون صولة العلماء ، عندما كانوا يصدعون بالحق ، ولا يداهنون فيه . فلما فسد العلماء وافتتنوا بالدنيا ، لم يخشهم القضاة . بل سلكوا سبيلهم .

وقد كانت للعلماء ، ولأهل الرياسة منهم خاصة ، أعمال وأخلاق ، تجعل الجبرتى على كثير من الحق فى القسوة بهم ، والعنف عليهم ، والزراية بأمرهم وأخلاقهم .

فنحن نجد ، غير ماروينا من أمثلة وصور ، الشيخ الدواخلى ، وكان كما رأينا عالما كبيرا ، يصادق الفرنسيين ويتودد لهم ، وينحاز إليهم ضد وطنه وأهل دينه . فلما قتل الفرنسيون الحاج مصطفى البشتيلى — وكان صهرا له — تلك القتلة الفاحشة التى فصلنا أمرها فى موضعه[1] لم يجدوا له وارثاً . فسعى الشيخ سعيه عندهم حتى حاز لنفسه هذه الثروة ، وكانت شيئاً عظيما .

---

(١) الجزء الثالث من الكتاب

ثم نجده ، بعد ذلك ، أو مع ذلك ، يجعل نفسه عيناً للعثمانيين على الفرنسيين وعلى المصريين . ينقل لهم الأخبار ، ويمدهم بما يحتاجونه من أنباء الحوادث والرجال ، يرسله لهم سرّاً ضد الفرنسيين ، وفى غفلة منهم .

مثل لعلماء العصر

هذه خلاصة موجزة ، ولكنها دقيقة صادقة ، عن علماء ذلك العصر الذى أرّخه الجبرتى . ونحن نجد من بين هؤلاء العلماء الذين قسا عليهم قسوته البالغة . أسماء كبار العلماء الذين كانوا يتمتعون بالجاه ، والمكانة الرسمية ، والشعبية أيضاً . فى تلك الأيام . من أمثال الشرقاوى ، والمهدى ، والبكرى ، والسادات .

وهذا الشيخ الأخير سنفرد له ترجمة خاصة صغيرة . لسببين : الأول غرابة هذه الحياة التى كان يعيشها هذا الشيخ . وبُعد أهدافه عن الغايات والأهداف التى يسعى إليها العلماء عادة . والثانى أن الترجمة للشيخ السادات تصور لنا ، إلى حد بعيد ، حياة كبار العلماء الرسميين فى فترة من تاريخ مصر . وأعتقد أن هذه الصورة ستبدو غريبة لدى كثيرين من الناس ، وبعيدة عما كانت تصوره لهم أمانيهم ومعتقداتهم التقليدية فى العلماء . وقد تحدثنا من قبل حديثاً طيباً عن السادات . وكأن الشيخ كان ذا شخصية مزدوجة ، فيها من الخير شىء كثير . ومن غيره أيضاً شىء كثير .

هو شمس الدين ، محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن . كان كريم الأب والأم ، فأبوه الخواجا عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف بن وفا . تربى مع أخيه الأكبر ، يوسف ، فى سيادة ، وصيانة ، وحشمة . وتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، وسلك طريق أسلافه السادات ، على خاله ، وعلى الشيخ عبد السلام العفيفى ، وغيرهما ، وحج فى سنة ١١٧٩ . وكان قد سعى لمشيخة السادات ، فلم ينلها ، فأراد أن يسرّى عن نفسه بالحج . وكان مما فعله ، لينال مشيخة السادات ، أن تزوج والدة شيخ هذه